

مشروع التجديد وإشكالية صناعة الإنسان عند محمد إقبال

د/ غنية ضيف
جامعة الجزائر 2

Abstract :

Le projet du renouveau conçu par Mohamed Iqbal vise la restructuration de la pensée humaine à partir d'une philosophie basée sur la reconnaissance de la centralité de la religion, et une perception dynamique de la relation entre l'être humain et Dieu.

مقدمة:

حملت الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين مشروعا اجتماعيا وثقافيا اعتمد رؤية خاصة لمسائل التجديد والإصلاح والنهضة والتقدم عبرت عن انشغالات سوسيو استراتيجية من أجل تغيير واقع المسلمين، وإرساء الصورة البديلة للمجتمع، وللإنسان الذي يحرر نفسه ويصنع التقدم، وهو ما يبرر أعمال الكثير من الإصلاحيين المسلمين في كل العالم الإسلامي، فقد لمعت في تلك الفترة أسماء كثيرة ممن حملوا مسؤولية التغيير أمثال محمد عبده، خير الدين التونسي، محمد إقبال، محمد بن الحسن الحجوي، عبد الحميد بن باديس وغيرهم كثيرون، وقد عرف الخطاب الديني والاجتماعي للمشروع الإصلاحي ابتداء من ثمانينات القرن التاسع عشر وفي كل العالم الإسلامي مفاهيم جديدة وظفها من أجل تقديم مفهوم التقدم، المدنية والحداثة وتعميمها في كل مستويات الحياة، لذلك انصب اهتمام هذه المشاريع على إصلاح الإنسان وأسندت إليه مهمة صناعة التقدم أو صناعة المدنية، وقد أدت هذه الجهود إلى إبراز عيوب البنى الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية العتيقة التي استقرت منذ قرون.

ومن بين المشاريع الكبرى التي عرفها العالم الإسلامي وتركت أثارا كبيرة على المستوى الفكري النظري، أو على المستوى الموضوعي الواقعي نذكر مشروع محمد إقبال التجديدي في الهند، وتكمن أهمية هذا المشروع في كونه رسم مسارات جديدة للمسلمين.

وإذ نحن نقدم هذه المحاولة العلمية فإننا نتصور أن أهمية هذا البحث تكمن في كونه يسمح لنا بفهم الواقع واستشراف المستقبل من خلال قراءة الماضي خاصة وأنا نعيش في مجتمعات لم تجب عن الكثير من الأسئلة والانشغالات التي طرحها رواد الفكر الإصلاحي والنهضوي. من هذا المنطلق يكون رهان هذه المقال هو البحث في تجليات هذه الإشكالية لدى رائد من رواد فكر التجديد في العالم الإسلامي .

1. سياق المشروع ومرجعياته:

تميز السياق الاجتماعي والسياسي في الهند في القرن التاسع عشر بوجود الاستعمار البريطاني، حيث عرفت خلال هذه الفترة احتقانات كبيرة بسبب السياسة الاستعمارية الرامية إلى التفكيك وتغذية الصراعات الطائفية بين المسلمين والهندوس، وقد عاش المسلمون في هذه المرحلة تهميشاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً إذ منعوا من التعليم في مدارسهم الخاصة، وتم إقصائهم من المناصب العليا وهو ما انعكس على أوضاعهم فأصابهم التأخر الاقتصادي والسياسي والثقافي.

في هذه المرحلة ولد إقبال في مقاطعة البنجاب عام (1838-1873) في أحضان أسرة متدينة من الطبقة الوسطى من أصل براهمي كشمي، اعتنق أجداده الإسلام قبل أكثر من مائتي عام. اشتغل والده بالتجارة، وكان رجلاً مثقفاً ورعاً وثيق الصلة بالعلماء وأهل التصوف، وهو المعلم الأول لابنه محمد، وقد كان إقبال رجل فلسفة وقانون وسياسة، فقد تعلم أولاً بمكتب لتعليم القرآن الكريم، ثم التحق بعد مرحلة التعليم الأولى بكلية الحقوق بلاهور في سنة 1895، ثم التحق بالجامعات الغربية في بريطانيا وألمانيا وتبحر في القانون، والفلسفة الغربية القديمة منها والحديثة، كما كان مطلعاً على ما وصلت إليه العلوم في عصره، وتمكن من عدة لغات، وهو ما جعل مشروعه التجديدي يقوم على ركائز نظرية ومعرفية قوية ومتينة، كما أن انتمائه إلى فضاء الثقافة الإسلامية سمح له بالإطلاع على العلوم الإسلامية ومنها الفلسفة.

2. مشروع التجديد الإقبالي:

تميز مشروع إقبال التجديدي بالتفكير العميق في مشكلات الإنسان المعاصر ووجوده، وفي مسألة صناعة التاريخ والتقدم برؤية معرفية غربية معاصرة دون القطع مع حقيقة الإسلام المبنية على التفكير العقلاني العميق والجدي، فقد أطلق مشروع تجديد التفكير الديني مستنداً إلى محاولة تركز على الفهم المعاصر للدين وهو مقتضى أساسي للحدثة عنده.

وترتبط دلالة التجديد عند إقبال بمفهوم إعادة بناء واقع روحي، فكري واجتماعي وحضاري مأزوم ميزته الأساسية التراجع منذ عدة قرون، من منطلق إعادة النظر في العلاقة بين الدين والتاريخ من أجل تفعيل الرسالة الحضارية للإسلام. ويذكر أحميدة النيفر ثلاثة ركائز فكرية أساسية تقوم عليها منظومة إقبال التجديدية نوجزها فيما يلي¹:
أ. رفضه اعتبار أوروبا مصدر الشرور ومنبع نكبات العالم الإسلامي الحديث، وذهابه إلى جعل التصوف السلبي والذهنية الفقهية المسؤولين الأصليين عن إبعاد المسلم عن روح المعاصرة.

ب. تبنيّه لمبدأ ضرورة التفاعل مع الحدثة المعرفية... وكان تفاعله مع هذا الفكر واعيلماً قائماً على أساس أنّ العقلانية الناقدة هي وحدها القادرة على إعادة الاعتبار للإنسان المسلم.
ج. ضرورة إنتاج منظومة فكرية موصولة بالجذور الإسلامية والقيم التوحيدية. فرغم أن هاجسه الأساسي في المستوى المعرفي كان حرصه على الإجابة عن متطلبات الفكر وكشوفات المعرفة الإنسانية في لحظاتها الحديثة فإنه كان يعمل على أساس تجديد المنظومة الإسلامية في مجالي الدين والفكر.

1 النيفر، أحميدة. النص الديني والتراث الإسلامي، تونس: دار الهادي للطباعة والنشر، 2004 م، ص 74.

هذه المبادئ هي إذن القواعد التأسيسية التي تبناها إقبال من أجل تأسيس فكر تحليلي نقدي، والتي من دونها يكون أي عمل إصلاحي مجرد تكرار أو استتساخ.

1-2. دلالة التجديد:

"هل الدين أمر ممكن؟" ذلك هو السؤال الفلسفي الذي صاغه إقبال وبنى عليه مشروعه التجديدي في حقل الثقافة الإسلامية، وهو ما يعني أن خلا أصاب منظومة التفكير داخل هذا الحقل، والسؤال نفسه إذا ما اتجه إلى حقل الثقافة الغربية يحمل مضمونا مختلفا ليعني: هل الدين أمر ممكن في ظل مستجدات حضارة مادية تأله العقل والعلم؟ .

ثم يضيف لهذا السؤال المزدوج الأبعاد انشغالا آخر تحدد في السؤال التالي: "هل من الممكن أن نستخدم في مباحث الدين المنهج العقلي البحت للفلسفة؟ وهو ما يعني إمكانية استعارة أدوات معرفية من المقاربة الفلسفية المعاصرة لبناء رؤية جديدة للدين تفسر العلاقة بين الدين والعالم الحديث بكل تطورات المعرفية والتقنية والأخلاقية.

من هذين المنطلقين نعتبر كتاب "تجديد التفكير الديني في الإسلام" محاولة لعرض أزمة العقل الإسلامي باعتبارها أزمة فكرية عميقة، فكانت أداة التشخيص فلسفية تحمل وسائل المعرفة الفلسفية الغربية، وهي في نفس الوقت محاولة للتصدي للعقل الغربي المنفلت من الدين تحت لواء العلم والعقلانية، وفي المحاولتين كانت وسيلة إقبال لصياغة تصورات الفلسفة التجديدية هي النقد سواء تعلق الأمر بالفلسفة الإسلامية أو بالفلسفة الغربية في علاقتهما وفهمهما للدين وللإنسان وللزمان وغيرها من المفاهيم الكبرى التي قاربها.

وكانت غاية إقبال من محاولته التجديدية هذه هي: «بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً، أخذاً بعين الاعتبار المآثر من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة»²، وهو ما يعني إضفاء الحركة على التفكير الديني الإسلامي، ويعلق زكي الميلاد على هذه الغاية بقوله: "ويبدو أن إقبالاً كان قاصداً ومدركاً بقوله المآثر من فلسفة الإسلام، وليس المآثر من فلسفة المسلمين، فقد أراد العودة إلى القرآن الكريم في اكتشاف فلسفته، وفي التعرف عليها، لكي يبرهن على أن القرآن الكريم هو منبع فلسفة الإسلام، وأن روح هذه الفلسفة وجوهرها يعارض الفلسفة اليونانية التي طبعت وشكلت فلسفة المسلمين"³

ومنه يكون ما اتجه إليه مجهود إقبال ليس القرآن لأن القرآن حقيقة متسامية أو ميتا اجتماعية، ولكنه اتجه إلى فهم المسلمين لهذا القرآن وفقا لما توصلت إليه العلوم الإنسانية الحديثة وعلى رأسها الفلسفة، وهو ما يعبر ضمنا عن موقف مزدوج يتضمن غايتين : أ. أراد رفع المسلمين المتخلفين إلى مستوى الحقيقة القرآنية الكونية الصالحة لكل زمان ومكان، وهو ما يعني أن القراءة المعاصرة للدين في ضوء العلوم الوضعية وبالذات في ضوء الفلسفة ممكنة .

ب. تبيان أن الدين ليس حقيقة تراثية وهو خطاب يتوجه للمسلمين الذين انبهروا بالحضارة الغربية المادية، وللغربيين أنفسهم الذين أقصوا الدين من حياتهم، فالدين عنده حقيقة مفتوحة بما أنه خطاب رمزي تتعدى دلالاته الزمان والمكان "والدين في أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا أو شعيرة من الشعائر، هو وحده القادر على إعداد

2 إقبال محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، د. م : دار الهداية، 2000 م، ص 4.

، "الميلاد، زكي". محمد إقبال وتجديد التفكير الديني في الإسلام <http://elbadil.com> 3.

الإنسان العصري إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لا بد أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث.⁴

إن ضبط دلالة التجديد عند إقبال تمر أولاً عبر تحديد موقفه من العلاقة بين الدين والفلسفة والإيمان والعلم، وهو الجهد الواضح في كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام"، ولذلك عرض وناقش المقاربات الفلسفية في الحقل المعرفي الأوروبي حول جدلية العلاقة بين هذه الثنائيات من أجل التدليل على مكانة الدين الجوهرية في الحياة الإنسانية، ورأى أن الإسلام شكل عند ظهوره حدثاً معرفياً حينما عارض الفلسفة القديمة-اليونانية- بل وأطاح ببعض أسسها الفلسفية باعتماده المنهج التجريبي.

2-2. رسائل إلى العقل الإنساني:

دعوة إقبال لتجديد التفكير الديني هي محاولة للفت النظر إلى أن الدين قادر على مجازاة العالم الحديث في كل مظاهر قوته وتطورات، وهو بذلك يبعث رسالتين للعقل الإنساني وجه إحداهما إلى الخارج، ووجه الثانية إلى الداخل.

2-2-1. رسالة إلى العقل المنفلت من الدين:

قدم إقبال درساً فلسفياً جديداً يقابل الدرس الفلسفي الأوروبي القائل بعدم وجود مكانة للدين في تاريخ التطور الحضاري الحديث، والذي يعتقد بتقدم الفلسفة والعلوم عموماً على الدين باعتبار أن التفكير الديني أو اللاهوتي مرحلة تجاوزها الزمن وهو ما يعبر عنه بصورة جيدة في الفكر الوضعي والذي تعتبر فلسفة أوغست كونت صورة واضحة عنه في المراحل الثلاث لتطور الفكر الإنساني، إذ يعتبر أن المرحلة الوضعية هي أرقى مراحل هذا التطور، في حين يصنف التفكير الديني أو اللاهوتي كمرحلة بدائية من مراحل التطور، وبالتالي لا مكان للدين في عصر العقل وعصر العلم ولا مكان له في المسائل الكبرى المتعلقة بالحدثة والتمدن والتقدم وغيرها، وهو ما يرفضه إقبال حيث يقول: "إن روح الفلسفة هي روح البحث الحر، تضع كل سند موضع الشك، ووظيفتها أن تنقضي فروض الفكر الإنساني التي لم يحصها النقد إلى أغوارها، وقد تنتهي من بحثها إلى الإنكار أو إلى الإقرار في صراحة بعجز التفكير العقلي البحث عن اكتناه الحقيقة القصوى، أما جوهر الدين فهو الإيمان.

والإيمان كالتائر يعرف طريقه الخالي من المعالم غير مسترشد بعقل⁵، إن الكشف عن العلاقة التوافقية بين الدين والفلسفة عنده تعني الدفاع عن ضرورة حضور البعد الروحي في الفلسفة وهو ما حاولت الفلسفة الأوروبية الحديثة ذات النزعة العقلانية المطلقة إنكاره " فالرجل العصري بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه لكنه سلبه إيمانه في مصيره هو⁶، وعندما دعا إقبال إلى إعادة بناء التفكير الديني فإنه دعا أيضاً إلى ضرورة استخدام العلوم الحديثة في القراءة الدينية المعاصرة، كما أراد التدليل على أن الطابع التجريبي الميداني الاستقرائي الذي تتميز به العلوم الطبيعية متأصلاً في القرآن وهو ما سمح للمسلمين بتأسيس المنهج التجريبي الذي كان بمثابة ثورة معرفية على النسق المعرفي القديم فالطابع الميداني التجريبي الذي تحتويه الخطاب القرآني شجع

4. إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 4217

المرجع السابق، ص 5117

المرجع السابق، ص 6223

المسلمين على تأسيس علومهم على خط المنهج التجريبي، لذلك فميلاد الإسلام بالنسبة إليه مرادفا لمولد العقل الاستقرائي، وهو ما يمثل ثورة ذهنية على الفلسفة النظرية اليونانية، لذلك "فالمهمة الملقاة على المسلم المعاصر مهمة ضخمة، إذ عليه أن يفكر تفكيراً جديداً في نظام الإسلام كله دون أن يقطع ما بينه وبين ماضيه قطعاً تاماً."⁷

إذن لا تعارض بين الدين والعلم الحديث لأن القواعد المعرفية التي قامت عليها الحضارة الإنسانية الحديثة هي قواعد متأصلة في الدين الإسلامي وهو ما ناقشه إقبال من خلال استحضار آراء وتصورات العديد من الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين ومناظرتها بنفس أدواتها المعرفية والمنهجية "والجهد الذي بذله إقبال في تأكيد معارضة روح القرآن للفلسفة اليونانية، كان بقصد تأكيد القطيعة مع العالم القديم من جهة، وتأكيد التناغم مع العالم الحديث من جهة أخرى وبالذات مع إشارته إلى أن الدين هو الذي نهض بالثورة العقلية التي أطاحت بالفلسفة اليونانية القديمة، وبذلك أذن بميلاد العالم الحديث. وبالتالي فإن الدين ساهم في تشكيل أراضيات ميلاد العالم الحديث، لا يمكن إلا أن يكون قادراً على مجازاة هذا العالم والتناغم والتفاعل معه"⁸، لذلك فإنه هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعداداً كاملاً، هذا الإنسان الذي ألغيت فيه طاقته الإيمانية في حضارة فقدت وحدتها الروحية، ولهذا السبب استنقاض إقبال في التدليل على أهمية العالم الباطني أو النزعة الروحية ضد النزعة العقلية أو المادية في الفلسفة الأوروبية في كتاب التجديد، وقد توصل إلى أن الإنسانية في العالم المعاصر تحتاج إلى "تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تصور المجتمع على أساس روحي ولاشك أن أوروبا العصر الحديث قد أقامت نظاماً مثالية على هذا الأساس ولكن التجربة بينت أن الحقيقة التي يكتشفها العقل المحض لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوي الصادق، تلك الجذوة التي يستطيع الدين وحده أن يشعلها."⁹

2-2-2. رسالة إلى العقل المسلم:

تتوجه هذه الدعوة لإعادة النظر في فهم أسس الفكر الديني عند المسلمين، وترتبط عنده بفكرة الاجتهاد إذ يقول "ولا ريب عندي في أن التعمق في درس كتب الفقه والتشريع الهائلة العدد لا بد من أن يجعل الناقد بمنجاة من الرأي السطحي الذي يقول بأن شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطور، ومن سوء الحظ أن جمهور المسلمين المتمسكين بالقديم في بلدنا هذا لم يستكملوا الأهبة بعد لدرس الفقه دراسة نقدية"¹⁰ ودعوة إقبال للاجتهاد تمس العناصر الأربعة المكونة لنظام التفكير الإسلامي: القرآن، الحديث، القياس والإجماع .

فالقرآن "ليس مدونة في القانون فغرضه الرئيسي... هو أن يبعث في نفس الإنسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله، وبينه وبين الكون من صلات"¹¹ من هذا المنظور يعتبر القرآن كتاباً جاء ليبعث شعور الإنسان بإنسانيته من حيث أنه يرتبط مع الله، ومع الكون، وعليه لا يكون القرآن كتاباً لتنظيم العبادات فقط، ولكنه كتاب للحياة، للحركة وللتطور

المرجع السابق، ص 7117

الميلاد، مرجع سابق 8

إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 9214

المرجع السابق، ص 10195

المرجع السابق، ص 11196

"وبهذه النظرة الجوهرية في التعاليم الأساسية للقرآن ينبغي للمذهب العقلي الحديث أن يتناول البحث في نظمتنا القائمة."¹²

ويرى إقبال أيضا أن مراعاة الأحوال الاجتماعية الواقعية للناس مهم في تقرير الأحكام الشرعية، مع الابتعاد عن التفكير النظري المجرد، ويعتقد أنه لا بد من تحرك تفكير المسلمين حول قيمة الإجماع تبعا للسياق الإنساني الجديد المرتبط بالتطورات التي عرفتتها المجتمعات الغربية في المجال السياسي، كما أن الحياة الاجتماعية المعقدة لا يمكن فهمها وحل مشاكلها انطلاقا من فتاوى جاهزة وهو ما يجعل التجديد في نظام التفكير الإسلامي عند إقبال دعوة ضد الجمود والتحجر، وربط الدين بالحياة ليستوعب الاختلافات الاجتماعية والتاريخية بين الشعوب ويشجع لها من منطلق أن "الجمود على القديم ضار في الدين، كما هو ضار في أية ناحية أخرى من نواحي النشاط الإنساني، فهو يقضي على حرية الذات المبدعة ويسد المنافذ الجديدة للإقدام الروحاني وهذا هو السبب الرئيسي في عجز الطرق التي اتبعتها صوفية القرون الوسطى عن تخريج أفراد لهم قوة الابتكار على كشف الحق القديم."¹³

3-2. فكرة الحركة، من عناصر التجديد:

لا ترتبط مسألة إعادة الحيوية إلى التفكير الديني بإعادة فهمه في ضوء العلوم الحديثة فقط، ولكنها ترتبط أيضا بتصوير ديناميكي للعالم وللإنسان، وقد تبين لنا فيما سبق حضور فكرة الحركة والتطور عند إقبال كفكرة مضادة لحالة الركود، وتراجع الاجتهاد التي عرفها العالم الإسلامي في عصره منذ خمسة قرون على تقريره، فالحركة هي اتجاه للتطور، والخطاب القرآني حسب إقبال يحمل فكرة تطور وارتقاء الكون انطلاقا من الحقائق التالية: أ. لم يخلق العالم عبثا "وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون" (الدخان: 38-39).

ب. العالم مرتب على نحو يجعله قابلا للزيادة والامتداد "يزيد في الخلق ما يشاء" - (فاطر: 1). "فليس العالم كتلة، وليس نتاجا مكتملا، وليس جامدا غير قابل للتغير والتبدل، ربما استقر في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة."¹⁴

إن ما سعت منظومة إقبال التجديدية توضيحه فيما يتعلق بالأصول الشرعية التي يبنينا عليها الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية هو اعتبار الخطاب القرآني الوجود خلق يزداد ويرتقي بالتدرج، و"مقتضى هذا التصور في المجال الشرعي هو أن يكون لكل جيل الحق في أن يهتدي بما ورثه من أسلافه من غير أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة وهذا المسعى يتطلب عند إقبال تفسير الأصول الشرعية تفسيراً جديداً على ضوء التجارب المستحدثة وعلى ضوء ما تقلب في حياة العصر من أحوال متغيرة."¹⁵

3. صورة الإنسان في المشروع الإقبالي:

ممكن أن نرد انشغال إقبال بمسألة الإنسان إلى انشغاله العام بتخلف المسلمين وإلى الأوضاع المزرية التي كانوا يعيشونها كما سبقت الإشارة إليه، لذلك كان مشروعه يركز على الدعوة إلى العودة إلى الانخراط في التاريخ عن طريق العودة إلى العمل، وإلى الحركة والنشاط، ومن هذا المنطلق سنناقش كيف تمثل محمد إقبال الرجل العصري،

المرجع السابق، ص 12197

المرجع السابق، ص 13216

المرجع السابق، ص 1419

المرجع السابق، ص 1585

لنستخرج صورة الإنسان التي حددها المشروع على اعتبار أن بناء الإنسان هو غاية كل مشروع إعادة بناء أو إصلاح .

1-3. المسلم المعاصر في المشروع الإقبالي :

فصل إقبال عند تناوله لمسألة الإنسان بين الرؤية السناتيكية الغالبة على واقع المسلمين للإنسان ، والرؤية الديناميكية التي أقرها الإسلام والتي تقر بتحريك الإنسان في مسار يتطور باستمرار ترتبط فيه تجربته الروحية بتجربته المعرفية، إذ يعتبر هذا الإنسان في المنظور القرآني كأننا تاريخيا متحركا بمعنى أنه يصنع وجوده المادي من خلال الحركة أو النشاط أو من خلال التجارب المتجددة التي تحدد علاقته بالعالم الخارجي سواء تعلق الأمر بمحيطه الضيق أو بالأفق الكوني من منطلق أنه مستخلف في الأرض.

ومن أجل فهم هذا التصور لأبد لنا أن نستحضر فكرتين أساسيتين أعاد من خلالهما إقبال صياغة تصور الإنسان (المسلم) الجديد أو المعاصر هي فكرة الاستخلاف، وفكرة ختم النبوة، لكن قبل استعراض مضمون الفكرتين لابد من الوقوف عند أسباب التراجع الحضاري الذي عرفه المسلمون منذ خمسة قرون كما حددها إقبال، والتي استوجبت التفكير في الوسائل التي من خلالها يمكن تجاوز الجمود الذي سببته سيادة الوعي الصوفي السلبي القائم على فكرة "وحدة الوجود"، والقائل بأن الوجود الحقيقي هو وجود الله، أما الوجود الإنساني فهو وجود إضافي، وأن كل الكائنات ترتبط مع بعضها في وجود واحد، وأن الحياة لا قيمة لها لذلك فإن العمل أيضا لا قيمة له وهي الأفكار التي تسللت وانغرست في الوجدان الإسلامي، وهو ما عارضه إقبال حيث اعتبر أن العمل هو شرط خلود الإنسان، وأن كل إنسان له كيان ووجود وشخصية خاصة ومستقلة .

تتأسس الذات إذن حينما يحضر وعيها بالعلاقة بينها وبين الله وبينها وبين العالم الخارجي أو الطبيعة ، من منطلق أن الإسلام لا ينفى الذات الإنسانية فهي حق وليست باطل، ولا يمكن أن تذوب في الذات العلية كما تذوب القطرة في البحر على حد تعبير أصحاب مذهب "وحدة الوجود".

1-1-3. فكرة الاستخلاف:

يصبح الإنسان إنسانا في تصور إقبال حينما يكتمل وعيه بذاته كفاعل محرك للتاريخ، أي حينما يعي أدواره الاجتماعية في الحياة، ويفهم وينظم علاقاته بالعالم الخارجي على أساس ديني ومعرفي، فالإنسان في القرآن هو الوحيد من بين كل المخلوقات الذي قبل مهمة الاستخلاف في الأرض، ويرتبط هذا التصور بفكرة أن الوجود في حركة متصاعدة تدريجيا، وفي ذلك يقول: "إننا بوصفنا من البشر ننتسب بحكم وظائفنا إلى حركة كونية قائمة بذاتها، وأحوال معيشتنا خارجية عنا في جملتها، ونوع الحياة الوحيد الذي نعرفه هو الرغبة أو الطلب أو الفشل، أو النجاح أي تغير مستمر من موقف إلى آخر فالحياة من وجهة نظرنا تغير، والتغير معناه أساسيا النقص، وإذا كانت تجربتنا الشعورية في الوقت نفسه هي نقطة للبدء الوحيدة لكل معرفة فإننا لا نستطيع تجنب القصور في تفسير الحقائق على ضوء تجربتنا الداخلية ذاتها وتصور الذات الإلهية متصفة بصفات البشر أمر لا مفر منه"¹⁶

ويبلغ كماله الإنساني " حين يصبح غرضه تحرر العالم والحياة وتساميتها وحين يدرك أنه صاحب مكان حقيقي في صميم القدرة الخالقة. عندئذ يؤول كماله إلى إمكان تصور عالم أفضل وتحويل ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون".¹⁷

وبناء على ذلك فهم إقبال قصة نزول سيدنا آدم في إطار أهم قيمة تبني عليها إنسانية الإنسان وهي قيمة الحرية، إنها الركيزة التي تحدد مسار هذا الإنسان "إنه يرى أن الأهم في تلك القصة هو إبرازها لأبعاد ذاتية الإنسان في نموها من حالة بدائية إلى مرحلة أكثر تطوراً، نمو ينقله من وضع يكون فيه مرتكزا على الشهوة الغريزية ومقطوعاً عن البيئة التي يعيش فيها إلى آخر يعي فيه أن له نفساً استيقظت لتدرك أنها صاحبة إرادة. على هذا يكون هبوط آدم هو ارتقاء لأنه يحقق للإنسان شعوراً بأنه ذو صلة عليّة وشخصية بوجوده، في خطوة أخيرة يقرر أن قصة (هبوط) آدم هي بداية نشوء الذات الحرة عن رغبة ورضا"¹⁸ ، فحين هبط آدم إلى الأرض برزت قدرة الإنسان على حرية الاختيار، وقبل الهبوط، فإن اللحظة التي أعلن الله عز وجل فيها عن خلق آدم عليه السلام قرن فيها وجوده بالمعرفة حيث ورد في سورة البقرة: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل أني أعلم ما لا تعلمون وأعلم ما لا تعلمون وما كنتم تكتمون" - (البقرة: 30، 33)، وهو ما يعني أن المعرفة وحرية الاختيار أو حرية الإرادة هي الأدوات أو الوسائل التي يرتقي بها الإنسان إلى مرتبة الخلود، وإلى مستوى إنسانيته ومرتبة كماله الإنساني عبر العمل المستمر والنضال الدائم "والصراع الميرير لاكتشاف الذات والطبيعة والسيطرة عليهما وتطويرهما ضمن المشروع الإلهي (الدين)".¹⁹

وتبقى حياة الإنسان نضال وصراع دائم متجدد ومتواصل ضمن ثلاث مستويات، فردية، اجتماعية وإنسانية من أجل أن يحقق الخلود في العالم العلوي، لذلك يكون النشاط، الحركة والعمل وتعمير الأرض هي مفاتيح المستقبل الموعود.

وعليه فإن قصة الهبوط حسب إقبال "أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بداية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان، وليس يعني الهبوط أي فساد أخلاقي بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس"²⁰ فالإنسان الذي تصوره إقبال هو الإنسان الفاعل والمتحرك في التاريخ، وهو الواعي بذاتيته وبأن الكون وجد من أجله وتسخير طاقاته يعني تحقيق سعادته في زمن "تواضعت فيه الحكومات الشخصية المستتبه، والفلسفات الخاطئة والأديان المحرفة على الاستهانة بقيمة الإنسان والحط من قدره وشرفه وقد نشأ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية مقت شديد في الناس للحياة، وتبرم من امتدادها واستمرارها وقنوط من المستقبل، وشعور عميق بالمهانة أو ما يسمى بمركب النقص وأصبح الإنسان حقيراً في عينيه وجاء بعض

النيفر، النص الديني والتراث الإسلامي، ص 1779

¹⁸ <http://www.hurriyatsudan.com> النيفر، احميدة. الإنسية وحدائث القراءة القرآنية من إقبال إلى طه عبد الرحمن

الغنوشي، راشد، المرأة بين القرآن وواقع المسلمين، تونس: 2011م، ص 1920

إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 20105

المتصوفة العجم فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء... وغلوا في إنكار الذات حتى أصبح الاعتراف بالنفس وحب الذات... والحركة والنشاط جريمة خلقية وحجرة عثرة في الكمال الروحي. "21

2-1-3. فكرة ختم النبوة : أو مشروع الإنسان الجديد:

خصص إقبال فصلا كاملا من كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام" لمعالجة مسألة النبوة بعنوان "روح الثقافة الإسلامية"، فقد أدرك أن تخلف المسلمين يرتبط بالوعي الصوفي السلبي، ذلك الوعي الذي استمر تاريخيا ولعدة قرون مهيمنا على الوعي الإسلامي، وقد لخص إقبال سبب انهيار الفكر الديني في انقلاب فهم الإسلام ليس باعتباره "تجربة حية، ومشاركة واتصال وثيق" ²²، ولكن باعتباره هروب من الواقع وعزلة عنه، وقد استهل حديثه عن تراجع مقام النبوة في ذكر تعليق أحد المتصوفة على قصة المعراج بقوله: "صعد محمد النبي إلى السماوات العلى ثم رجع إلى الأرض قسما بربي لو أني بلغت هذا المقام لما عدت أبدا." ²³

وقد علق إقبال على هذا المشهد بقوله: "أما رجعة النبي فهي رجعة مبدعة، إذ يعود ليشق طريقه في موكب الزمان ابتغاء التحكم في ضبط قوى التاريخ وتوجيهها على نحو ينشأ به عالما من المثل العليا جديدا" أما الوعي الصوفي فإنه رفض العودة من "مقام الشهود" وهو ما يبين الفرق السيكلوجي بين الوعي النبوي والصوفي "فمقام الشهود عند الصوفي غاية تدرك لذاتها، لكنه عند النبي يقظة لما في أعماقه من قوى سيكلوجية تهز العالم هزا." ²⁴ إن قوى النبي قدر لها أن تغير مسار التاريخ الإنساني وتنشأ نظاما جديدا وتكشف عن توجيهات جديدة للحياة الإنسانية.

وتقابل فكرة النبوة فكرة ختم أو إلغاء النبوة، ذلك أن "النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على رسائله هو" ²⁵، من هنا تكون المعرفة أساس التجربة الإنسانية لأنها تحيل إلى منظور ديني عقلائي يتصور العالم في حركة مستمرة تتطلب حضور سلطان المعرفة باستمرار "إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثته الملك، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة" ²⁶ التي تهدف في النهاية إلى إلغاء كل سلطان شخصي يعتقد بأن له أصلا خارقا وهو ما يعني وضع حضور الثقة الكاملة في العقل الإنساني، وهو ما يعتبر في نظرنا هدم صريح لهيمنة سلطان التصوف الزاهد الذي ساهم في إيقاف إبداع المسلمين، واعتراف بدور العقل والمعرفة في صناعة التاريخ والحضارة عن طريق العودة إلى الفعل الحضاري، وهو من جهة أخرى رسم لمعالم الإنسان الكامل المتحرر من قيود التخلف.

صلاح الدين محمد شمس الدين الندوي : الاتجاه الإسلامي في شعر إقبال ، ص 21187

. إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، مرجع سابق، ص 2275

. المرجع السابق، ص 23149

. المرجع السابق، ص 24149

. المرجع السابق، ص 25149

. المرجع السابق، ص 2650

يمكن القول أخيراً بأن مشروع إقبال يعتبر مساهمة في تجديد فهم المسلمين للدين والوعي بالوجود الإنساني في ظل شروط الحداثة الغربية انطلاقاً من استخدام أدوات معرفية معاصرة وإعادة قراءة الموروث المعرفي الإسلامي قراءة نقدية عالمية، كان الهدف منها "إيقاظ وعي الوطني والأنشطة السياسية لعامة المسلمين وإعطاء قاعدة نظرية لمثله الاجتماعية"²⁷ للخروج من حالة الانحطاط والتبعية للمستعمر البريطاني.

من هنا كان الدين منطلقاً سواء من خلال إعادة بناء الفهم بما يتوافق ومعطى التغيرات الحاصلة في العصر، أو بالعودة إلى هذا الدين وهو خال مما ألحق به من جراء انكسارات التراجع الفكري للإجابة على احتياجات العصر، ونحن نعتقد أن المسائل التي طرحها الفكر الإصلاحية عموماً في العالم الإسلامي منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين مازال الكثير منها لم تجد لها حلولاً نهائية وهو ما يستدعي إعادة النظر في هذه المسائل لأننا مازلنا نعاني في العالم العربي خصوصاً من أزمة الإنسان، أزمة المواطنة، ومسائل الحرية والمسؤولية والتفكير العقلاني وغيرها في زمن ميزته الأساسية التسارع .

قائمة المراجع :

أولاً - مراجع باللغة العربية :

1- احميدة النيفر، النص الديني والتراث الإسلامي، دار الهادي للطباعة والنشر، تونس، 2004 .

<http://www.hurriyatsudan.com2> - احميدة النيفر، الإنسية وحداثة القراءة القرآنية من محمد إقبال إلى طه عبد الرحمن

3- إقبال محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دم، دار الهداية، 2000.

4- الغنوشي، راشد. المرأة بين القرآن وواقع المسلمين، تونس، 2011.

5- الميلاد زكي. "محمد إقبال وتجديد التفكير الديني في الإسلام

<http://elbadil.com>

ثانياً- مراجع باللغة الأجنبية :

"L. R. Gordon-Polonscaya." Muhammad Iqbal 's social thought- 1

<http://www.allamaiqbal.com/publications/journals/review>

27L. R. Gordon-Polonscaya." Muhammad Iqbal 's social thought", <http://www.allamaiqbal.com/publications/journals/review/oct69/2.consultéle> 26-01-2015